

- المحاضرة الخامسة: الاتجاه النفسي في الرواية العربية

محتوى المحاضرة:

- بين الرواية وعلم النفس.
- الاتجاه النفسي في الكتابات الروائية العربية
- خصائص الاتجاه النفسي

أهداف الدرس:

يتوقع من الطالب في نهاية هذا الدرس أن يكون قادرا على:

- معرفة ماهية علم النفس.
- علاقة علم الإبداع بعلم النفس.
- التعرف على خصائص الرواية ذات الاتجاه النفسي.
- الاطلاع على بعض الروايات العربية ذات الاتجاه النفسي.
- الاطلاع على أعلام الرواية النفسية في السرد العربي.

المراجع:

- أحلام حادي، جماليات اللغة في القصة القصيرة قراءة التيار الوعي في القصة القصيرة السعودية (1970-1995).
- محمد عناني، دراسات في المسرح والشعر.
- حسن المودن، الرواية والتحليل النصي - قراءات من منظور التحليل النفسي.
- روجروب. هنكل، قراءة الرواية - مدخل إلى تقنيات التفسير، تز: صلاح رزق .
- سامي سويدان، فضاءات السرد و مدارات التخيل - الحرب والقضية والهوية في الرواية العربية.
- محمد مصايف، النثر الجزائري الحديث.
- محمد برادة، الرواية العربية ورهان التجديد.
- واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر.
- محمد حسن عبد الله، الواقعية في الرواية العربية.

- المحاضرة الخامسة: الاتجاه النفسي في الرواية العربية

أ- بين الرواية وعلم النفس

لقد كان للحريين الكونيتين عميق الأثر في تغيير طبيعة المنتج الروائي، بنية ودلالة، بحيث يتلبس القارئ بشكل واضح النقلة النوعية التي شهدتها النصوص الروائية حين انتقلت من البحث على سعادة الفرد (لمحاكية في ذلك الأنساق الفكرية والإبداعات الأدبية المختلفة التي أنتجت في هذه الفترة) إلى التعبير عن اعترابه، وتتبع أسباب ضياع إنسانيته، ومبررات انسلاخه عن القيم التي كان يؤمن بما فأصبح النص الروائي أرضاً غامضة غموض الواقع ذاته، وهو ما حتم على الروائي التمرد على المؤلف الأسباب موضوعية، ليعيد تأييد النص بما يوائم المستجدات الخارجية، معتمداً في ذلك على أسس استمدتها من العلوم المختلفة في مقدمتها "علم النفس التي صاحبت التطورات الغربية في تلك الفترة .

لم تعد الرواية في هذه المرحلة تعبأ كثيراً برصد الواقع وتحسيد العوالم الاجتماعية، أو تخييل التاريخ وإعادة تمثله لأجل التعريف به؛ أي أنها أصبحت تتم بما تعبر عنه، بقدر اهتمامها بما تعبر به عن دواخل الإنسان الذي يحتاج وجوده في حد ذاته إلى تقص واستشفاف، بحثاً في دواخله عن المتغيرات وفي نفسه - ما هو مركز الفعل الكوني - عما يحتلجه من أحاسيس، وما يتذنه من رؤى، فكان بذلك الانصراف إلى الذات وخصوصيتها من خلال إنتاج الرواية النفسية⁽¹⁾ التي كان العلم النفس الفضل في دعم الانصراف إليها.

- يجب التمييز في هذا المقام بين الرواية ذات البعد النفسي وبين رواية تيار الوعي؛ فالأولى بحسب "همفري" شبيهة بالبحث النفسي لإهمالها الجانب الذهني العميق، أما رواية تيار الوعي فبالرغم مما تتضمنه من خصائص الرواية ذات الأبعاد النفسية بحثها في وعي الشخصية (وهنا يتجلى التداخل الذي جعل بعض النقاد يذهبون إلى أن الرواية النفسية صورة أولى لرواية تيار الوعي، وأن هذه الأخيرة لم تخرج من عباءة الأولى يوماً) إلا أنها تتجاوزها في الاهتمام بالمستويات الذهنية، والتغيير المستمر للشخصية، وانسيابية الأفكار، وتحول المشاعر. وملفوظ "تيار الوعي" اقترضته لحقل النقد "ماي سنكلر" سنة 1918 من عالم النفس "وليام جيمس" وهو الاصطلاح الاستعاري البليغ الذي أراد به سنة 1884م التأكيد على أن الوعي الإنساني لا يؤمن بالثبات أبداً، وأن الصيرورة سمة من أبرز سماته، وكنتيجة لذلك أمكن

¹- أحلام حادي، جماليات اللغة في القصة القصيرة قراءة التيار الوعي في القصة القصيرة السعودية (1970-1995)، المركز الثقافي العربي، بيروت - لبنان، ط1، 2004. ص: 32 وما بعدها.

القول بأن الفرد متقلب الشخصية، ولا يملك هوية واحدة، وأن ضروب التغيير تمس كل جوانبه الداخلية الحميمة دون استثناء .

لقد كان العلم النفس التحليلي الذي أرسى دعائمه "فرويد" بالتعاقد مع ما طرحه "برجسون" من مفاهيم عن تيار الشعور⁽²⁾ الأثر البالغ في تخلق الاتجاه النفسي إبداعا في الفضاء الفني الروائي بمبادئه وأسسها، وذلك باعتباره منهجا مميّزا بتقديمه الجوانب النفسية للشخصية في الأعمال الأدبية / السردية الروائية، فما طرحه الكلينيكيون من مصطلحات ومفاهيم تخص الحلم، وطبقات الوعي المختلفة واستدعاء الأسطورة في عملية التحليل، ساهم في بعث مفهوم الاتجاه النفسي في كتابة الرواية، الاتجاه الذي يتواشى والرؤيا الفردانية التي تبناها روائيو ما بعد الحربين.

لقد وعى نقاد الأدب بشكل واضح المستجدات النصية الحاصلة، متبعين التغيير الحاصل على مستوى النص الأدبي عموما والرواية بالخصوص، باحثين في التشكلات النصية الجديدة التي مست في معظمها الذات الفاعلة، حيث كسر الشكل التقليدي للبناء السردى، واستبدل بشكل جديد يحاكي واقع الاغتراب والاستلاب الذي اعترى الإنسان في الواقع، فتأتي الاهتمام بفنيات الكتابة الجديدة التي هدفها التغلغل في بواطن الشخصيات، وسبر الدواخل اعتمادا على ثنائية (الشعور/الوعي- اللاشعور/اللاوعي).

من الفروق الرئيسية التي رصدتها النقاد بين الرواية الجديدة وما أحدثته من تغيير، وبين الرواية التقليدية، تظاهر الشخصية عند كبار كتاب الواقعية الذين عرفوا في القرن التاسع عشر، وتظهرها لدى الروائيين في بداية القرن العشرين؛ فالشخصية في الأعمال الكلاسيكية كانت ثابتة نفسيا قارة الوجدان إلى درجة يمكن من خلالها للقارئ أن يستشرف ما ستقوله أو ما ستفعله، وهو ما تغير " في كتابات رواد الرواية النفسية -رواية تيار الشعور - (جيمس جويس) و(فرجينيا وولف) ... بمعنى أن الشخصية في كتاباتهم لا تتمتع بأي قدر من الثبات، بل هي تتغير على الدوام، وتصويرها يعتمد على ما يدور في داخل الذهن وفي داخل القلب"⁽³⁾، وهو ما دفع النقاد إلى "محاولة النظر إلى العمل الأدبي لا بوصفه وثيقة نفسية للكاتب، بل وثيقة للحالات النفسية لدى الشخصيات التي أبدعها داخل العمل المستقل،

² -- للزيد ينظر: محمد عناني، دراسات في المسرح والشعر، مكتبة غريب، القاهرة - مصر، ط1، 1985، ص: 07

³ - المرجع نفسه. ص: 09.

والتي تتغير من عمل إلى آخر بل من لحظة إلى أخرى في داخل العمل نفسه"⁽⁴⁾، ويكفي بحسب "روبرت همفري" تأمل المضامين قبل الغوص في أدوات التعبير لاكتشاف مظهرات هذا النوع الجديد من الكتابة السردية الذي يتجلى من خلال ملفوظها أو ملفوظ السارد عنها أو حتى من خلال "النشاط السيميائي للجسد، إذ كل حركة من حركات الجسد هي علامة تحمل مدلولاً نفسياً"⁽⁵⁾.

وتبعاً للواقع الغربي أصبحت الرواية النفسية "أكثر تسامحاً مع الفوضى واجتراء على النظام، أو في أحسن تقدير أنسب لتحقيق أولية كبيرة في الاهتمام بالفرد، إنما تعكس توق الغرب إلى الحرية الشخصية، وقوة رغبته في تشكيل الواقع على نحو يناسب الفردية"⁽⁶⁾، وهي الفردية التي انبنت لأجلها الفلسفة الوجودية وانفتقت عنها الكثير من الأعمال الأدبية المنتصرة للذات الإنسانية وخصوصياتها بعيداً عن النظرة الشمولية القاتلة والقامعة للذات بحسب أصحاب هذه الفلسفة.

ومن ضمن النصوص الغربية التي اتسمت هذه الخصائص الجديدة؛ فسبرت أغوار الذوات الفاعلة، وأفشت الحوارات الداخلية، وانتقلت من توصيف الحركات والأقوال إلى تحليل النفسيات وتبع تقلباتها:

✓ "الغار المقطوع" لإدواردو جاردن .

✓ "السيدة دالواي" / الفنار / الأمواج / فرجينيا وولف .

✓ "عوليس" / "صورة الفنان" لجيمس جويس .

✓ "الصخب والعنف" لوليم فوكنر .

ومن الأدب الروسي نسجل على سبيل التمثيل:

✓ "يوميات مجنون" لـ "غوغول"

✓ "المقامر" / "الإخوة كارامازوف" / "في قبوي" / "الجريمة والعقاب" لدوستويفسكي

4- محمد عناني، دراسات في المسرح والشعر. ص: 09.

5- حسن المودن، الرواية والتحليل النصي - قراءات من منظور التحليل النفسي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2009. ص: 150.

6- روجروب. هنكل، قراءة الرواية - مدخل إلى تقنيات التفسير، تر: صلاح رزق، دار الغريب، القاهرة - مصر، ط1، 2000. ص: 94.

ب- الاتجاه النفسي في الكتابات الروائية العربية

لقد تبني الروائيون العرب الأنموذج النفسي الغربي في إنتاجهم للنص الروائي، فأعادوا استنباته بما يوافق سياقات إبداعهم، فتبدي الوضع العربي (المستعمر المتخلف / المضطهد المأزوم) نصيا على النحو ذاته الذي تجسد به في نفسية الإنسان العربي، فحالة الانكفاء على الذات، والاستلاب الحاصل، والحزن، والخوف ... حالات توطنت على مستوى النص العربي ولها ما يعضدها في الواقع "فباتت الحاجة ماسة إلى فعل إبداعي [نفسى جديد، يعيد النظر في كل شيء، ويكون قادرا على إعطاء قراءة جديدة للحياة الحديثة." (7)

لقد غدت الرواية ذات الأبعاد النفسية في أدبنا العربي بما تبنته من نمط جديد في الكتابة وأساليب مخصوصة في نسج المتواليات السردية علامة إبداعية فارقة، لم تستطع حركية الإبداع تجاوزها؛ فالإيمان بضرورة إرساء القطيعة مع الرواية الواقعية (أو على الأقل تجاوزها بالاشتغال على العوالم الداخلية للشخصيات في علائقها المختلفة بالمكونات السردية الأخرى، أي بمضمرة الذات الفاعلة "وما تتألف منه من مشاعر وعواطف ومطامح وآلام" (8)، في علاقته بالمحاور الدلالية الكبرى التي ينبنى عليها النص الروائي، وهو ما أخذ المنجز العربي إلى عوالم إبداعية جديدة ومبتكرة.

استخدمت الرواية في المشرق العربي وبخاصة المصرية منها تقنيات التعبير النفسي المختلفة وآمنت بجداولها في إنتاج الدلالة وتحقيق لذة القراءة، وذلك بالرغم من تشابكها وتشعبها، وقد ارتبطت المحاولات الأولى - على اختلاف أمداء نضجها - بجيل ما قبل الستينات من القرن الماضي ممثلين بـ "مصطفى محمود" و"عبد الفتاح رزق" و"نجيب محفوظ"، الروائيون الذين حاولوا تغليب المونولوج الداخلي أو مناجاة النفس والمحكي النفسي في نصوصهم، واعتمدوا الإنسان الذات الفرد بهواجسه وآماله وآلامه محورا ناظما لأعمالهم.

⁷- ينظر: سامي سويدان، فضاءات السرد و مدارات التخيل - الحرب والقضية والهوية في الرواية العربية، دار الآداب، بيروت - لبنان، ط12006، ص: 11.

8- محمد مصايف، النثر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1983، ص: 60.

يرجع النقاد نضج المحكي النفسي "بما هو خطاب سردي بضمير الغائب عن الحياة الداخلية للشخصية الروائية" (9) إلى الروائي نجيب محفوظ من خلال نصه "اللبس والكلاب"، وهو النص الذي أجرى به آمن خلال شخصية سعيد مهران قطعة مع الروايات الواقعية التي عرف بما هو أكثر من أي مبدع آخر، فبنص "اللبس" تجاوز "القاهرة الجديدة" و"الثلاثية" (قصر الشوق / بين القصرين / السكرية) التي ربت في سماء الرواية العربية الواقعية ردحا من الزمن، وذلك لأن الروائي بحث من خلال نصه عن شكل تعبيرى جديد قوامه سير الأبعاد النفسية للشخصيات الروائية، وبذلك أحدث "محموظ" طفرة إبداعية بعد فترة زمنية وجيزة كان فيها سلطان الرواية الواقعية العربية.

لقد اعتمد "نجيب محفوظ" المحكي النفسي في حبه نصوصه السردية المتأخرة، وعلى تقنية الحلم التي أبدى بتوسلها الصراعات الداخلية لشخصياته، والتناقض الحاصل بين ما تريده وبين واقعها الذي يتسم بالسوداوية في غالب الأحيان، وأودع لأجل ذلك مهمة المحكي للشخصية الروائية التي قد تكون شخصية مريضة أو ذات عاهة أو ذات عقد نفسية أو غيرها من الصور الأخرى التي جعلت من المركز هامشا ومن الهامش مركزا مقارنة مع الروايات الواقعية السابقة، فاصطبغت بذلك نصوص "محموظ" بخلجات وأهواء شخصياتها، وقد حاول المبدع من خلالها الكشف عن عقدها وأمراضها النفسية، نحو ما نجده في نص "السراب"، وهي رواية نفسية بامتياز، حيث حاول "نجيب" معالجة عقدة الخوف عند شخصيته الجذع "كامل"، وقد لجأ المبدع من أجل الكشف عن عقدة شخصيته إلى استعادة الماضي في شكل ذكريات متناوبة نصيا، ومناجاة داخلية مرافقة للذات الفاعلة. وعلى هذا الدرب قفى محفوظ أعماله تباعا فتأت للجمهور رواية "السمان والخريف"، "الطريق"، "الشحاذ"، "ثرثرة فوق النيل" ... وغيرها من النصوص التي اعتبرت ثورة نفسية في مجال الإبداع الروائي العربي.

أما بالنسبة للمرحلة اللاحقة ما بعد الستينات، فقد ارتبطت بظهور خزانة روائية جديدة وروائيين شباب أفادوا من الكتابات النفسية السابقة، وتجاوزوها بما اطلعوا عليه من إبداعات روائية غربية، فأخذوا على عاتقهم تحريب أدوات جديدة للتعبير عن المضامين النفسية، وقد سطعت في هذه

الفترة أسماء كل من "جمال الغيطاني، وصنع الله إبراهيم، وتيسير سبول، وغالب هلسا، وإدوارد الخراط، وحى الطاهر، وبعدهم محمود عوض عبد العال وواسيني الأعرج وبهاء طاهر وسناء

⁹-- حسن المودن، الرواية والتحليل النصي- قراءات من منظور التحليل النفسي. ص: 149.

شعلان⁽¹⁰⁾ ... الذين استندت نصوصهم إلى مضامين الغربية والخوف والعجز والقهر والإحباط والتعاسة، وهي المضامين التي أفرزت الكثير من الأسئلة الاجتماعية والسياسية والحضارية، واستدعت لأجل ذلك وسائل تعبيرية مناسبة للتصوير النفسي، نحو التّداعي الحر والهجاء والمفارقة وتفكيك الأحداث والسّخرية والبناء العنقودي للحوار الداخلي.

وباستشفاف المتون الروائية التي نحت هذا النحو من الكتابة، يمكن أن نوجز خصائص الاتجاه

النفسي في النقاط الآتية:

- ✓ الانصراف إلى عوالم الشخصية الداخلية.
- ✓ عدم الاعتماد على عدد كبير من الشخصيات مثلما تفعل الروايات الواقعية.
- ✓ التّخلي عن الراوي العليم لصالح الشخصية في الغالب.
- ✓ تبني الحوار الداخلي وإعطاؤه حظًا كبيرًا من المساحة النصية.
- ✓ عدم ثبات مستوى التعبير اللّغوي لتغير دواخل الشخصيات.
- ✓ التوغل في إنتاج الدلالات والابتعاد عن التسطيح والبساطة والمباشرة.
- ✓ الاحتفاء بالماضي من خلال استرجاع الوقائع بطريقة سلسلة من طرف الذات الفاعلة نصيًّا.
- ✓ الانصراف إلى الزمن النفسي للشخصية وتهميش الزمن الطبيعي.
- ✓ استبطان أغوار الشخصية باستخدام المونولوج، التّداعي الحر، مناجاة النفس وغيرها من التقنيات.
- ✓ الانتقال نصيًّا بشكل عمودي داخلي والابتعاد عن الانتقال الأفقي المتبع للأحداث بشكل سطحي.

- ✓ تغييب المؤلف أو التخفيف من سلطته وتوسل طرائق تقديم الشخصية نفسها بنفسها دون وسائل.
- ✓ تطعيم الرواية بصور هذيانية بعد وضع شخصياتها داخل تجربة مؤثّرة.

ج- النصوص العربية

من أبرز النصوص الروائية العربية التي كان لها فضل الريادة بحسب زمن ظهورها، وطبيعة منجزها وأمداء نضجه، والتي اتسمت جميعها بالخصائص السّالفة الذكر:

10- ينظر: محمد برادة، الرواية العربية ورهان التجديد، الصّدى للصحافة والنشر، دبي - الإمارات العربية، ط1، 2011.

- اللص والكلاب / السراب / الشحاذ/ ثرثرة فوق النيل / السمان والخريف لنجيب محفوظ.
- التلصص لصنع الله إبراهيم . التفكك ل رشيد بوجدره .
- "قصة حب ما جوسة" لعبد الرحمان منيف .
- "الزيني بركات" بجمال الغيطاني . "سكرمر" / "عين سمكة" ل محمود عوض عبد العال .
- "طوق الياسمين" لواسيني الأعرج .
- "عودة الطائر" إلى البحر ل حلیم بركات .
- "السقوط في الشمس" له سناء شعلان .
- "رجال في الشمس" / "عائد إلى حيفا" ل غسان كنفاني . "قصيد في التذلل" ل الطاهر وطار .
- "تلك الرائحة" لصنع الله إبراهيم .
- "أنت منذ اليوم" ل تيسير سبول .
- "الضحك" لغالب هلسا . "الجبل الصغير" ل إلياس خوري .
- "أحلام المدينة" ل فريدة إبراهيم . "الحي اللاتيني" ل سهيل إدريس .